الفصل الثاني

السيرة والقالب المقالي

المبحث الأول: السيرة والمقال الذاتي

المبحث الثاني: السيرة والمقال الوصفي

المبحث الثالث: السيرة والمقال الاجتماعي

مدخل:

إذا نظرنا إلى السيرة الذاتية المتشحة بالقالب المقالي على أنها من أكثر الأنواع الفنية شيوعاً وغزارة، فذلك بسبب ما تمتاز به المقالة بداية من مرونة وتنوع، وعدم احتياج صاحبها إلى حذقٍ وتمرسٍ عميقين لاستعمالها في سيرته، بسبب استجابة المقالة وملاءمتها لأغلب الموضوعات، إن لم يكن كلها. فالفنون الأدبية عامة من طبيعتها "إلا تنحصر في نطاق محدود صلب الأطراف، بل هي كالأواني المستطرقة، يعدو كل منها على أخيه، ويُفيد منه، وهكذا استغلت المقالة الفنون الأخرى، فأخذت من السيرة والقصص رسم الشخصيات، ومن المسرحية الحوار، ومن القصيدة الغنائية النفس الشعري"(١).

وقد استعمل رفاعة الطهطاوي منذ أكثر من مائتي عام هذا الفن في كتابه **التلخيص**، ولا يزال هذا الكتاب محافظاً على شبابه وبريقه كما لو كان قد كُتب منذ عهد قريب، وليس له من العمر قرنان من الزمان.

وأقام علي مبارك فكرة كتابه **علم الدين** وفق رؤية (روائية) أولية استندت على مجموعة من الأبطال، وهم: الشيخ علم الدين وابنه برهان الدين والخواجا، متحدثاً عن رحلة هذا الشيخ الأزهري مع ابنه إلى

(١) فن المقالة، محمد يوسف نجم، دار الثقافة، بيروت، (د.ت)، ٩٦.

أوروبا لمشاهدة ألوان الحضارة وفنونها، جاعلاً موضوعات تلك الفنـــون ضمن قوالب مقالية مُستقلة.

ولاشك بأن النواة الفنية لهذا الكتاب جهد مشكور لصاحبه، عـــن طريق ابتكار شخصيات تطلبتها موضوعات الكتـــاب، مثلمـــا تطلبتهـــا ظروف المرحلة التأسيسية للنهضة والتطوير، فكان أن صاغ فكرته مـــن خلال شخصيات لها وجود ملموس وفاعل في البيئة المصرية، فالشـــيخ علم الدين رجل أزهري ذو عقل متفتح مستنير، يسعى جاهداً فيما يسعى للتحقيق في صلاحية ونفع علوم أوروبا وحضارتها – والتي جاءت فـــي موضوعات مقالية–.

والشيخ يناقش ويستفسر عن تلك الفنون والعلوم من غير أن ينساق في الوقت نفسه إلى قبول ما ترفضه عقيدته وشيمته الشـــرقية الغيـــورة لبعض العوائد والسلوكية الغربية المستهجنة، فهو هنا يجمع بين صـــحة الغاية وسلامتها، وبين الانفتاح والتطور اللازم للسير في ركب الحضارة. وقد جاء كتاب علم الدين أثراً فريداً عكس أكثر ما عكس طرافة وجِـــدة عقلية علي مبارك صاحب هذا الأثر الأدبي المبكر فـــي فـــن الروايـــة التعليمية.

المبحث الأول

السيرة والمقال الذاتي

تتسم المقالة الذاتية بخصوصية قربها أو انطلاقها من مبعث وجداني محض، لذا كان من السهل تلمُّس ملامح كاتبها وصفاته وطبائعه من خلال هذا النوع المقالي خاصة.

هل يكتب صاحب المقالة الذاتية لنفسه أولاً، أم للآخرين؟

يصعب التكهن بأولوية من الذي تتوجه إليه هذه المقالة أولاً، ولكن المقالة الذاتية تشفّ بصدق ودون حجاب عن سريرة كاتبها بادئ ذي بدء. وعندما يتناول الكاتب مشكلة ما، أو صورة ذهنية، ويقوم بتلوينها بتأملاته الذاتية، فهو يرسم دخيلة نفسه، ويفتح للقارئ مغاليق عقله وقلبه. فالقيمة الحقيقية لهذه المقالة تكمن في "مدى تجليتها للشخصية الإنسانية التي تتوارى خلفها"(١).

ويبرز في جانب المقالة الذاتية زكي مبارك في تصويره لذاته من خلال موضوعاته، أياً ما كانت هذه الموضوعات. له نظرة فلسفية خاصة، نابعة من وحي تجاربه وطبيعته الشخصية، وكثيراً ما يتناول في رسائله ومقالاته موضوع المرأة. بغض النظر عن انتمائها لبيئة شرقية أو

---

(١)المرجع السابق، ١٢٩.

غربية، وقد أشبهت معالجاته لهذا الموضوع خلاصات فلسفية لما آل إليه فكره ووجدانه، لكثرة تقلّب الموضوع بين جوانحه وخلجاته، وهو لم يستسغ يوماً نموذج المرأة المسترجلة الذي شاع لفترة زمنية، ثم ما لبث أن انحسر، يقول في مقالة بعنوان: عودة الجنس اللطيف:

"الحمد لله، فقد عاد الجنس اللطيف. ومن أين عاد؟ منهزماً من حرب البدع الجديدة، بدع الأعوام القريبة التي حاول فيها الفتيات أن يكون لهن أشكال الفتيان بلا فرق ولا تمييز، فقد مرّت بباريس فترة كانت الفتاة هي الفتى في كل شيء، في ترجيل شعره، وتصفيف طرته، وترتيب هندامه. وكان الفتى في حيرة من أمره، لا يدري ماذا يصنع ليتميز عن الفتاة.

عاد الجنس اللطيف إلى إرسال الشعر، فانفتح باب الأمل أمام الشعراء ليتغزلوا من جديد في الجدائل الذهبية، فليس هنا شعر فاحم مع الأسف الشديد، وغضّت الفتاة في النظر عن التمادي في تلك الضلالة العمياء، ضلالة الرجولة في جسم الأنوثة، وصارت تمشي وهي ضعيفة الخطو مكسال، فتنقل القلب من مكان إلى مكان، وعرفت قيمة الحياء والخفر.

كانت مشكلة الأمس هي مشكلة الشعراء الذين حرمتهم المرأة المترجلة من عرائس الشعر والخيال، وقد فُضت هذه المشكلة والحمد لله. ووجد الشعراء أماكن القول، أما مشكلة اليوم فهي مشكلة الحلاقين، فقد

زاد هؤلاء زيادة غير معقولة؛ بسبب إقبال النساء والبنات على قص الشعر، وقد مضت بدعة الشعر المقصوص، فمن أين يعيش جيش الحلاقين العرمرم؟ هذه هي المشكلة، أو تلك هي النقطة، كما يقول لافونتين، ولكن لا خوف، فالله عز شأنه يقول "وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا"[1] "وَكَأَيِّنْ مِنْ دَآبَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"[2].[3].

وكانت المرأة الفرنسية والغربية عموماً في ذلك الوقت المبكر تتجاذبها موجات من شعارات الأزياء وبدع الموضة المنتشرة في كل مكان، ولعبت تلك الشعارات المنادية بالمساواة بين الجنسين دوراً كبيراً في التغير الاجتماعي من خلال المرأة، ليس في اللباس الخارجي فحسب، بل وفي طرائق العيش والتفكير وأسلوب الحياة، وقد أوجدت إحدى نتائج الحرب العالمية الأولى عشرات الملايين من الأسر بلا عائل، مما حدا بالمرأة للخروج إلى العمل، وأوجد لها في ساحة المجتمع بعد ذلك مساحات من الحرية المتزايدة، فشاعت مفاهيم الثقافة النسائية العصرية في موجات الأنماط الثقافية المتضاربة في المظهر، كما في السلوك، على أن نواميس الطبيعة والسنن من الإلحاح بمكان بحيث لا يمكن تجاهلها،

---

(١) سورة هود، الآية ٦.

(٢)سورة العنكبوت الآية ٦٠.

(٣) ذكريات باريس، ١٩٦ ، ١٩٧.

فسرعان ما ارتفعت الشعارات المنادية بعودة المرأة إلى طبيعتها الهادئة واللطيفة، وهو ما أثلج قلب الأديب زكي مبارك.

وجاءت المقالة في أسلوب تصويري ساخر، وهي طريقة زكي مبارك غالباً في تناول الفكرة الخاطئة ونقدها، من وجهة نظر ساخرة.

وأقول هي الطريقة الغالبة، لأنها ليست الوسيلة المعتمدة دائماً لدى مبارك لمعالجة الأفكار المغلوطة، لاسيما إن كانت هذه الأفكار تُمثل نمطاً ثقافياً أو اتجاهاً فكرياً سائداً. ومبارك بصفة عامة لا يحبذ الحدة في نقد الفكرة المغلوطة – من وجهة نظره– بل يتأرجح أسلوبه ما بين السخرية الضاحكة والعرض الهادئ بحسب الفكرة ذاتها، وكثيراً ما يعتمد الكاتب على عرض مخزونه الثقافي والديني لتقوية رأيه، وقد ختم مقالته بآية قرآنية مناسبة لما انتهت إليه الفكرة المعروضة على بساط النظر والتأمل.

ومن يعتقد أن وضع الآية الكريمة كخاتمة لمقالة نقدية ضاحكة جاء ختاماً غير موفق ولا مناسب لمثل هذا النوع من المقالات، فهذا في رأيي اعتقاد خاطئ، لأن الدرع الإيماني الهادي يحيط بفكر وقلم وتوجه الكاتب بحزم ورقة في آن معاً. فالكاتب يتمثل الآية الكريمة شعاراً آمناً ضامناً رزق أي دابة تدبّ على وجه البسيطة، وليس فقط حلاقي باريس.

*****

وتزخر سيرة عبد الوهاب المسيري بالمقالات الذاتيـــة والمتأملـــة، وسيرته بأكملها فصول تتألف من مئات المقالات؛ فهو مفكرٌ أنهكه التفكير في معطيات العصر وحضارته، يتعمق تحليلاً وتفسيراً وتأويلاً وتعلـــيلاً، ولا يدع مجالاً لاستخدام المنطق والإيمان لا يسبح في أغواره؛لتحصـــيل الحقائق وتفسير الغوامض، وقد تناول في إحدى مقالاته إشكالية الطموح الزائد الراغب بمعرفة كل شيء، وهي مشـــكلة لازمتـــه زمنـــاً طـــويلاً وسيطرت عليه، تطارده رغبة تعلم كل شيء منذ بـــدايات نشـــأته فـــي دمنهور:

"فقد كنتُ أنوي أن أحصر كل ما تبقى من كتب لم أقرأها في مكتبة البلدية بدمنهور (بحسبان أنها تحوي كل المعرفة الإنسانية)، حتى يمكنني أن أعرف كل ما خطته يد البشرية"[١].

وهذا طموح مؤلم، بل مدمر، لا سبيل لتحقيقه، لاسيما مع تضاعف المعرفة الإنسانية، التي تضاعفت منذ بداية التاريخ حتى عام ١٧٥٠م، ثم تضاعفت مرة أخرى من ١٧٥٠-١٩٠٠م، ثم تضاعفت مرة ثالثة مـــن عام ١٩٠٠-١٩٥٠م، وبعد ذلك أصبحت تتضاعف كل عشر ســـنوات.. وهكذا[٢].

---

(١) رحلتي الفكرية، ١٧٩.

(٢)انظر المصدر السابق، ٢٧٢.

وهذه الرغبة القوية في معرفة كل شيء تستبد بكثير من ذوي الطموحات العليا لتسنم الثقافة في جميع فروع المعارف الإنسانية، وقد تحدث المسيري بصراحة عن شدة إيلام هذا الطموح واستبداده، وحين شرع في كتابة رسالة الماجستير، وكان موضوعه عن أثر الشعر الرومانتيكي الإنجليزي على جماعة أبوللو، وجد نفسه يقرأ في كل شيء ليكتب فقط مقدمة الرسالة، ثم بدأ يقرأ في الشعر العربي والأعمال النقدية للعقاد والمازني وطه حسين، ويكتب عن شعر خليل مطران وشعر إبراهيم ناجي، حتى أنه قرأ المعلقات الجاهلية(١).

وهكذا استمر في رحلة قراءات لا تنتهي، وأبحاث مؤلمة أتت على أعصابه وقواه، لم يتحرر منها إلا بعد ذهابه للولايات المتحدة، وهناك درس وتعلم أنواعاً عديدة من المناهج البحثية، وتعافى إلى حدٍ ما – وليس تماماً– من طريقته البحثية السابقة التي سيطرت عليه وأنهكته لسنوات طويلة، وقد ذكر وفاة بعض أصدقائه من جراء الانسياق وراء رغبة تعلم العلم في كل فروع المعرفة: "وقد صرع هذا الذئب مجموعة من أعز أصدقائي أمام ناظري، مات بعضهم دون أن ينبس ببنت شفة، رغبة منه في أن يحقق هذه الصيغة المستحيلة: عمل نظري شامل مجرد ينتظم كل المعلومات الممكنة. ولعل صديقي الأستاذ علي زيد – رحمه الله– مثل فريد على ذلك، كان– رحمه الله – يعرف كل شيء تقريباً، ولا يعرفه كمعلومة، وإنما في إطار نظري شامل كان يزداد اتساعاً على مر الأيام،

(١) انظر: المصدر السابق، ١٧٩.

كما أنه كان يعرف الكثير من اللغات الأوروبية (الإنجليزية- الفرنسية- الإسبانية – الإيطالية) وكان تملكه لناصية اللغة العربية شيئاً مذهلاً. كنت كلما أطلب منه كتابة مقالة يجلس ليتحدث عن موضوعها ساعات طوالاً، ويأتي بأطروحات مُذهلة، ثم يذهب لكتابة المقال، فيأتي بعشرات الكتب، ويبدأ في البحث وتتسع الرؤية إلى ما لانهاية، فيلتهمه الذئب"[1].

والمسيري في عرضه الهادئ لهذه المشكلة المرضية المتولدة أساساً من طموحه الدؤوب للمعرفة، ساعده القدر في رؤية نتيجة الانسياق وراء هذا الطموح القاتل في غيره، وشاهد ما حدث لبعض أصدقائه المقربين ليبدأ التراجع عن هذه الأفكار والطموحات الذئبية.

فقد سمّى شدة استبداد هذا الطموح بالذئب، ووجه الشبه بينهما يكمن في الألم الأليم الناتج عن تمزيق القوى الذهنية والطاقات الكامنة وبعثرتها وطحنها وسحقها وراء هذا الحلم المرضي.

ولكن الأمر الفاصل في كثير من التجارب والمعايشات الخاطئة في أنها لم تهتدِ وتصوب مسيرتها ومفاهيمها إلا بعد الارتحال إلى الشاطئ الآخر.

وهل كانت مشكلة المسيري المريرة –التي لازمته لسنوات طويلة– إلا ثمرة مُرة من ثمار المفاهيم الثقافية الشائعة التي تشير إلى فلان من

---

(١) المصدر السابق، ١٧٩ ، ١٨٠.

الناس بإعجاب، بأنه موسوعة علمية ومثقف من الدرجة الأولى وعلامة عصره... إلخ؟ وقد وقع المسيري ومثله كثيرون ضحية لمثل هذه المفاهيم، فهو يريد أن يكون أبعد إنسان عن الجهل وكل ما يمت إليه من سطحية الرؤية وضحالة التفكير، ومن هنا علق في براثن هذا الذئب المعلوماتي. وجاءت الرحلة الدراسية للغرب (الولايات المتحدة) لتكون بداية الحل والانفراج للأزمة، وأدرك بأنه لو قرأ كل ما كتب عن موضوع تخصصه "من مقالات ورسائل دكتوراه وكتب، لقضيتُ سحابة أيامي أقرأ وأستوعب وأقرأ دون أن أنتج شيئاً"(١).

* * * *

المقالة الثالثة لإبراهيم عبد المجيد التي ابتدأها بذكر خبر وفاة والدته في مصر، بينما هو في فرنسا مع ابنه لإجراء عملية جراحية، مما جعله حائراً ذاهلاً شارداً يمشي على غير هدى، يقول: "ماتت أمي.. عرفت نبأ موتها في الصباح الباكر، لم يكن ممكناً الرجوع بسبب حضور ابني الذي تحدد له وقت إجراء العملية الجراحية.. أي سجن صرت فيه فجأة..

(١) المصدر السابق، ١٨٠.

خرجتُ إلى الحدائق الممتدة أمامي في حي الميري، وعـــدت ثـــم خرجت إلى وسط المدينة. اتصلت باثنين من المصريين فوجدت (الأنسر ماشين) يرد علي، إنهم في العمل وأنا لا أحب (الأنسر ماشين).ذهبت إلى أكثر من مكان... مر النهار خائباً، لكني أبداً لم أشعر بالضـــيق، فـــي المساء أطل علي جبار ياسين بوجهه الطيب، ونوبل فافريـــه بدهشـــته الطفولية. كانت الدموع قد سبقتهما إلى وجهي منذ لحظات، وكنـــت قـــد جففت دموعي. كنت خائفاً أن لا أبكي، لم أبك كثيـــراً، لحظـــات هادئـــة تسللت فيها الدموع وجففتها. كان جبار قد فقد أمه منذ شهور، لم يرهـــا منذ ربع قرن، ماتت في العراق الأسير وهو في المنفى، كنت قد رأيـــت أمي قبل سفري، وابتسمت وقلت له: الموت ليس مشكلة، لكنها الطريقـــة التي يتم بها هي التي تؤلمنا. كان وضع جبار أكبر عزاء لي وأكبر عزاء لأي أحد.. ذهبنا إلى بار الجاينيت، رحنا نتكلم في كل شيء.

انضم إلينا بعد قليل شخص ثالث يحمل اسم باتريس، رجل ضـــخم سمين، قال لي جبار: إنه كان أضخم من ذلك من قبل. وأنا أشعر دائمـــاً بالأمان مع الناس السمان، أشعر دائماً أنهم أبرياء، أكثر براءة من غيرهم إنه مثقف متعاطف مع الفلسطينيين وقضيتهم، وصاحب مصنع يخـــوت. تعارفنا بسرعة مدهشة، وانتقلنا إلى بيته لحظات ثم إلى مطعم صغير. في المطعم انطلقت النكت المصرية مني. قلت نكتاً تلك الليلة شـــديدة النفـــاذ لاذعة جداً، مصرية إلى أقصى درجة، وضـــحكنا كثيـــراً جـــداً، وفـــي منتصف الليل تركوني بعد أن أوصلوني إلى الشقة. في الشـــقة أشـــعلت

التليفزيون ورأيت الغارات على أفغانستان.. تنهدت وقلت: هاهي أمريكا قد بدأت عملها العبثي، ستشوه المشوهين وتقتل المقتولين بسبب فعلة هي التي صنعتها،ووجدت نفسي أتساءل: لماذا حقاً لا تموت أم أمريكا؟ لماذا تموت أم فرنسا وتموت أم مصر.. وسرعان ما أدركت أن أمريكا، الدولة الجبارة التي تهيمن على العالم،ليست لها أم. لم يكن لها أم في يوم من الأيام، لم تتعلم الرقة، لم تعرف كيف تأخذ الناس في صدورها.. أغلقت التلفزيون ونمت"(١).

- الأسلوب الوصفي الهادئ سمة بارزة للكاتب عبد المجيد.

وبرزت كثرة الأفعال الماضية لتدعيم صورة آلية الفعل:

- خرجت إلى الحدائق.
- عدت ثم خرجت.
- ذهبت إلى بار الجاينيت.
- اتصلت باثنين من المصريين.

وكان لكثرة الأفعال على هذا النحو دلالة قوية على الحيرة والاضطراب والضياع في القيام بالفعل، ثم العدول عنه إلى غيره

(١) أين تذهب طيور المحيط، ١٦٤ ، ١٦٥.

وغيره... وهكذا، سلسلة من الأفعال غير المترابطة، لأنه ببساطة يريد أن يُخرج نفسه من أزمة داهمته على حين غرة، فشدة وقع الخبر جمّد حتى الدموع في مقلتيه ماعدا قلة قليلة منها، فهو لم يبكِ كثيراً.

والاضطراب يأخذ أشكالاً متشابهة عبر محاولات فعل شيء ما لنفسه، إن بالترويح والمشي، أو بالاتصال بأصدقائه، أو بالذهاب للمقهى وهكذا، ولم تُجد المحاولات السابقة نفعاً، ولكن الانفراج النفسي بدا واضحاً مع ظهور صديقه العراقي جبار ياسين الذي عاش هو الآخر تجربة مماثلة منذ أمد قريب، فكان هو أساس الانفراج النفسي "كان وضع جبار أكبر عزاء لي، وأكبر عزاء لأي أحد"(١).

وفي المقالة توضيح فائدة وأهمية وجود الأصدقاء في مواقف كهذه، حيث حرصوا على مرافقة صديقهم ولم يتركوه وحده إلا لينام عند منتصف الليل.

أما لجوؤه لإلقاء النكات اللاذعة على مسامع أصدقائه، فهو مدعاة للحيرة، قد يكون نوعاً من التنفيس الغاضب على نفسه التي وجدها في ظرف كهذا، بعيداً عن أقرب الناس إليه.

وقد يكون ادعاءً تطمينياً لأصدقائه، ليريهم تماسكه وثباته، وقد يكون الاحتمالان معاً.

---

(١) المصدر السابق، ١٦٤.

وبعد مغادرة الأصحاب، وبقائه وحيداً في الشقة، شرع في تنفيس الغضب الجامد على ما يراه في التلفاز في أخبار حروب أمريكا التي لا تنتهي، وفي خلاصة ختامية حكمية ليومه رأى فيها أن القسوة الأمريكية مردها عدم وجود جذور متأصلة لهذا البلد الحديث. أمريكا قاسية لأنها ببساطة ليست لها أم، ولم يكن لها أم في يوم من الأيام.

وهنا رؤية فلسفية لمحاولة تفسير شدة قسوة وعنف ما يراه من أخبار الحروب الأمريكية، فقابل ذاته ووضعه الإنساني الفردي أمام ما يراه من دمار غير مبرر، وانتهى إلى هذه الرؤية.

وتشع المقالات السابقة بأحاسيس متفاوتة من الذاتية المتأملة، حيث نستطيع جسّ النبض الإنساني الدقيق المشترك فيها. حتى في موضوع عودة الجنس اللطيف لزكي مبارك برزت مساحة من الذاتية. وإن كانت ذاتية جزئية، من خلال معالجة الكاتب لموضوع المقالة من منطلق طبيعته وحسّه الفطري.

أما الذاتية لدى إبراهيم عبد المجيد، فتتعمق بالتناول المكثف لها في مقالاته الحميمة كما في مقالاته الاجتماعية كذلك، فقلمه انطباعي متأمل يصبغ العالم من حوله بنظرته الشخصية المحضة. بينما تحمل مقالات عبد الوهاب المسيري طابعاً ذاتياً قوياً، ولا عجب في هذا، فالمسيري عاصر وعايش المذاهب والاتجاهات الفكرية، وتخبط طويلاً في دهاليز شعاراتها البراقة في الفكر والسياسة والمجتمع المثالي.

وتعكس مقالاته صوراً جلية لصراعاته الداخلية العميقة، بعكس مقالات سابقة لزكي مبارك، الذي وإن كان له من التساؤلات الفلسفية ماله، إلا أن مقالاته الذاتية أقل في جانب التخبط الفكري والصراع الداخلي، ولا ريب أن الوازع الديني والنظرة الإيمانية لعبا دوراً إيجابياً في ثباته الداخلي لما حوله من تناقضات فكرية وشعارات فلسفية.

المبحث الثاني

السيرة والمقال الوصفي

من البدهي أن تتضمن السير الذاتية توصيفات دائمة لما يحيط بالكاتب من المشاهدات البيئية والطبيعية والعمرانية أو في جانب الأحداث والمواقف المسيسة بالكاتب نفسه، وفي كلا الحالين يكون التوصيف ضرورة فنية لتسهيل دخول القارئ قلب النص.

ومن أقدم المقالات الوصفية المؤثرة في الذاكرة ما كتبه أحمد عطية الله في أثناء رحلته اللندنية، عن مشاهداته لهذه المدينة في الصباح الباكر. ويبدو لعامل مرور السنوات في عقود زمنية متسارعة وهج إنساني دافئ، لبساطة ذلك العهد البعيد، واعتماده الأساسي على العنصر الإنساني في شتى مناحي الحياة.

يقول: "إذا سرت في هذه الساعة المبكرة في إحدى أحياء المساكن تجد على درج كل باب بلا استثناء زجاجة أو زجاجتين من زجاجات اللبن، وتحت أسفل الباب، تجد صحيفة الصباح. ومهما استيقظت مبكراً، فإنك تجد هذه الصحيفة في مكانها ولا تعرف متى يلقيها موزعها السحري، فأنا لم أره يوماً خلال هذه السنين التي قضيتها في لندن، ولم أر زميله صاحب الزجاجات البيضاء التي كأنها تنبت كل صباح في

أركان أبواب المنازل. وفي الساعة التاسعة تسمع النقرات المتتالية السريعة، تتبعها صلصلة ضعيفة! هذه النقرات لا يخطئ في معرفة صاحبها الطفل الإنجليزي؛ ولا يخطئ من يضبط عليها ساعته. هذا موزع البريد الذي يدور دورته الصباحية، وينثر حمله في فتحات الأبواب، ثم تسمع هذه النقرات السريعة المتتالية بانتظام إلى أن تتلاشى، وقد ابتعد صاحبها، فعلى كل درج لابد وأن يقف هذا الموزع، لأن في كل دار من ينتظر خطاباً من قريب أو بعيد، من زوج في الهند، أو حبيب في أستراليا؛ أو أخ على مياه الأطلنطي"[1].

- وتعكس هذه الصورة جماليات وصفية تنبض بالخصوصية والأمل المتطلع لما قد يأتي به بريد الصباح من أخبار شافية.

كما أنها تعكس تنسيقاً دقيقاً للتواصل الإنساني المنظم في شبكة هذه المدينة العملاقة.

وكان لكثرة الأفعال المضارعة في النص تأثير إيجابي في إضفاء الروح والحركة للموضوع.

---

(١) لندن، ٢١٧.

ولاشك بأن قدراً كبيراً من جماليات هذه الصورة نابعٌ من دهشة واستغراب من يراها لأول مرة بأمّ عينيه. بمعنى أن مثل هذه المشاهدات اليومية مألوفة لأهلها، فهم معتادون عليه،ا بينما يراها غيرهم من الوافدين والسياح بنظرة مختلفة، فهي مشاهد جميلة حقاً- إن للكاتب نفسه أو لنا نحن القراء- وكنا قد تناولنا سابقاً ما ذهب إليه عبد الرحمن بدوي بتفسيره سبب قلة شعراء الطبيعة السويسريين[١] وردّ ذلك إلى دور الاعتياد في تكرار رؤية ومعايشة المشهد اليومي، مما يسبب فتور حاسة التذوق الجمالي.

- ومن المشاهد الوصفية الشائعة في الغرب التنزه مع الحيوانات الأليفة -الكلاب على وجه خاص- وقد لاحظ محمد ثابت في أثناء تجواله بمدينة أدنبره عاصمة اسكتلندا مدى تعلق الناس وولعهم بكلابهم:

"ولعل أعجب ما استرعى نظري وأثار دهشتي شدة غرام هؤلاء بالكلاب واقتنائها، فلا يمر واحد، فقيراً كان أو غنياً، إلا وكلبه أو قطيع كلابه حوله، وهي تلازمه حتى في أسفاره، وهم يتعهدونها بالطعام والنظافة، وإذا ماتت عنوا بدفنها. ولشدة ما كانت دهشتي – وأنا أزور قبر الجندي المجهول في قلعة أدنبرة الشهيرة- حين وقع نظري على

(١) راجع الباب الثاني ، في الفصل الأول، مبحث: وصف الطبيعة

مقصورة زرعت بالأزهار الجميلة وقامت حولها أنصاب صغيرة من الحجارة، عليها نقوش، ما كدت أنحني لأقرأها حتى بدت مدافن لكلاب الضباط، وقد كتب على كل نصب اسم الكلب وتاريخ موته! وفي محطة سكة الحديد في بادنجتون بلندن جثة لكلب كبير محنط، وضعت في صندوق من الزجاج وسط المدخل، وقد تدلت من فمه سلة صغيرة وقد كتب عليه: (الكلب الشريف تِم الذي بلغ ما جمعه بنفسه من تبرعات الخيرين ثمانمائة جنيه، وقد مات سنة كذا مأسوفاً عليه) ولقد تحدثت إلى نفر من هؤلاء في موضوع الكلاب، فكان جوابه أن الناس في البلاد الأخرى يشتغلون ليعيشوا، أما نحن في هذه الديار فنشتغل من أجل الكلاب، فقلت في نفسي ما أسعد الكلاب في تلك البلاد"[1].

والاهتمام الفائق بالحيوانات الأليفة وتربيتها- وخاصة الكلاب- من الموضوعات المهمة في المجتمع الغربي. فهناك جمعيات متخصصة لحقوق الحيوانات، ومرافق خدمية بكفاءات ممتازة، وربما تزامن الاهتمام الكبير بالحيوانات مع تصاعد أزمات الإنسان المعاصر في المجتمع الغربي، لاسيما مع تزايد الشعور بالاغتراب والوحدة وتفكك الروابط العائلية، إلى جانب ما عُرف عن الكلاب من الوفاء والإخلاص لأصحابها. وربما كانت شدة التعلق والاهتمام بالكلاب دليلاً على الفراغ العاطفي عند أصحابها،ممن لم يجدوا الوفاء عند البشر.

---

(١) جولة في ربوع أوروبا، ٧١.

وخُتمت المقالة بمثل أو قول شائع في اسكتلندا، لتأكيد أهمية ومكانة الكلاب في تلك البلاد.

* * * *

تناولنا سابقاً مدينة باريس في أكثر من موضع لكثرة ورودها عند كاتبي السيرة ممن شُغفوا بها، فهي عند توفيق الحكيم واجهة بلورية "تعرض خلفها عبقرية الدنيا"(١).

وهي عند سابقه مصطفى عبد الرازق ملكة المدائن وعاصمة الدنيا "ولو أن للآخرة عاصمة لكانت باريس"(٢).

وشدة الشغف بباريس هي التي جعلت مصطفى عبد الرازق ينحو نحو هذه المبالغة المرفوضة، لاسيما من رجل دين سبق وأن تولى رئاسة الأزهر.

وهناك مدينة أخرى حديثة العهد نوعاً ما مقارنة بباريس، فليست بأقدمية باريس، ولا في عراقتها، ولكنها تحتل ثقلاً هائلاً في سماء الاقتصاد والإعلام والسياحة، إنها مدينة نيويورك الواقعة على ساحل

---

(١) زهرة العمر، ٤٦.

(٢) مذكرات مسافر، ٣٢.

الشمال الشرقي للولايات المتحدة، تستقبل الوفود الآتيـــة قبالـــة المحـــيط الأطلسي عبر رمزها القائم بشموخ أمام الميناء: تمثال الحرية، وإن كان من شيء اتفقت عليه الآراء ممن تناول مدينة نيويورك، فهـــو اتفـــاقهم جميعاً على أنها مدينة المتناقضات بامتياز.

يصف عبد الوهاب مطاوع نيويورك في مقالـــة طويلـــة أســـماها المدينة الصفراء؛ وذلك بسبب ازدحام شوارعها ما يلجـــئ النـــاس إلـــى ركوب سيارات الأجرة الصفراء، فينساب اللون الأصفر فـــي شـــوارع المدينة[1]. من أقصاها لأدناها، يقول: "كل تناقضات الحيـــاة الأمريكيـــة الصارخة بأكثر حدةٍ من غيرها من المدن، ففيها الثراء الخرافي إلى حـــد التخمة، وشارع المال الشهير "وول ستريت"، والمساكن الفاخرة إلى حـــد الخيال في حي مانهاتن، وفيها أيضاً الفقر إلى حد الإمـــلاق، والمســـاكن الفقيرة إلى حد التخلف، وافتقاد المواصفات الصحية في حـــي الزنـــوج الشهير هارلم، وحي بروكلين.

وفي نيويورك أرقى مسارح أمريكا وأشهرها، والمتاحف العالميـــة وأكبرها متحف المتروبوليتان، وفيها إلى جوار ذلك أحقر علـــب الليـــل وأعجب المطاعم وأغربها في الديكور والذوق الفني الفاسد في حـــي "ذي فيلاج" أو قرية جرينتش! وفي نيويورك أنجح رجال المال والبنوك الذين يتحكمون في أسواق المال العالمية، وفيها إلى جوارها وربما أمام مكاتبهم

---

(١) انظر: سائح في دنيا الله، ١٤٨.

مباشرة أكبر عدد من المتسكعين والمتسولين الذين يستجدون منك ثمن كوب من البيرة، وكثير منهم يحملون لافتة من الكارتون مكتوباً عليها "بلا بيت"، أي بلا سكن ولا مأوى"[1].

والمقالة ذات نبض هادئ لهدوء الكاتب ذاته، ومع أن النص مُجتزأ من مقالة طويلة، إلا أنه كاف لإعطاء صورة واقعية عن حال مدينة نيويورك فعلاً. ولم يلجأ الكاتب إلى عنصر الخيال نظراً لأن ما يراه أمامه يفوق حد الخيال، عبر تجاور المتناقضات أمامه في مشهدٍ ميلودرامي مثير، ونكهة سينمائية جاهزة لمدينة رأسمالية حتى النخاع.

- ومن موضوعات المقالات التي شغلت كاتبي السيرة في السنوات القليلة الماضية ظاهرة انتشار الأسواق الضخمة أو مابات يُعرف ب (المولات). وقد بدأت هذه المجمعات التسويقية الضخمة في الولايات المتحدة، وسرعان ما انتشرت في جميع العالم في غضون عقدين من الزمن.

كتبت أماني فريد في رحلتها الأولى للولايات المتحدة عن هذه الأسواق الضخمة:

---

(١) المصدر السابق، ١٥٠،١٥١.

"إنها مدن صغيرة قائمة بذاتها، وعندما تجد أوكازيون في هذه الأماكن ويسمونه سيلز "Sales" تجد فعلاً أن هناك تخفيضات حقيقية تستحق أن يُقبل الناس على شرائها، حتى لو لم يكونوا في حاجة إليها، فالنوع الجيد من البضائع والرخيص في هذه الأوكازيونات والذي يضاهي بيوت الأزياء في باريس، بل قد يفوق بعضها هذه البيوت، كل هذا عامل من عوامل الشراء والإقبال عليها، وخاصة إذا كانت هناك تصفيات، فتصل البضائع إلى أقل من نصف ثمنها الأصلي، وفي هذه المجمعات ترى كل أجناس العالم، إنها برج بابل القرن العشرين، فيها من تسير محجبة، وفيها من تسير بثياب شبه عارية، وفيها من ترتدي الجينز أو البنطلون، ومن ترتدي الثوب المريح الفضفاض، ومن تلبس الحذاء الكوتشوك، أو من تلبس آخر صيحات الأحذية، الكل في حركة، من الشراء إلى الفرجة إلى الطعام إلى الأحاديث"(١).

والمقالة تتناول ظاهرة اجتماعية/ اقتصادية انتشرت في جميع بلدان العالم، ومنها بطبيعة الحال مجتمعاتنا العربية والخليجية، وهي المجمعات التسويقية العملاقة، مُنهية بذلك عصر المحلات الصغيرة المفردة (الدكاكين)، ومُنهية أيضاً أواصر الألفة المتقادمة بين المشتري والبائع صاحب المحل الذي كان يرِد عليه الجميع، ويعرف ذوق عملائه القدامى عبر سنوات متراكمة من التعامل والمعرفة الطيبة. لقد حلّت الشركات المتعددة الجنسيات لتصبح هي صاحب المحل و المجمع الكبير، وبدلاً من

(١) مصرية في امريكا: ٢١٣.

الخيارات القليلة المحدودة أصبحت الخيارات بالمئات في ألوان البضـــائع وتصميماتها المختلفة، فشاع شغف التسوق في هذه المجمعات الضـــخمة، وأصبح التسوق يعني: رحلة/ نزهة/ ترفيهاً وترويحاً.

يقول عبد الوهاب المسيري يصف حال كثير من زملائه المأخوذين بهذه الأسواق: "وكم رأيت الكثيرين من زملائـــي المصـــريين يـــدخلون مناطق التسوق (الشوبنج مول) ولا يخرجون منها قط. وهم يضـــطرون بطبيعة الحال إلى مغادرتها لممارسة حياتهم العادية (من أعمال ودراسة)، ولكنهم كانوا يغادرونها جسداً وقالباً وحسب، لأنهم كانوا يبقون فيها روحاً وقلباً، يهرعون إليها بعد أداء أعمالهم ليستأنفوا نشاطهم الأساسي الـــذي يتصورون أنهم خُلقوا من أجله، شراء السلع والاستفادة من الأوكازيونات التي لا تنتهي! وبطبيعة الحال وصلت هذه الإمبريالية النفسية إلى بلـــدنا، وبعد أن كان التلفزيون المصري لا يعرف الإعلانات، أصبح الإعـــلان جزءاً أساسياً فيه. وهو أيضاً يتوجه للأطفال متخطياً الآبـــاء. أخبرتنـــي إحدى الأمهات المصريات أن ابنها يبكي بحرقة شديدة من أجل نوع من الشيكولاته لم يذقه طيلة حياته ولكنه شاهد إعلاناً عنه"[1].

ومن المقالة ندرك أن الحياة الاجتماعية الحديثة أصبحت مُستوعبة تماماً ضمن فكرة الاستهلاك والتسوق الدائم والمستمر. هكذا أصبح حال إنسان المجتمع العولمي الحديث كمن يدفعه التيار إلى التسوق والتسوق ثم التسوق، بغض النظر إن كان بحاجة لما يشتريه أم لا.

(١) رحلتي الفكرية، ٢٥٨.

وهذا ما أشارت إليه أماني ووضحه المسيري في مقالتيهما، وتناوله غيرهما ممن ذهبوا للولايات المتحدة في بدايات عهد انتشار هذه الأسواق[١] الكبيرة، طرحوها على مائدة النقاش والرأي، منذ أن بدأت ظاهرة النقود البلاستيكية[٢]التي أصبحت بديلاً عن النقود الورقية.

- واتسمت مقالة أماني بالجمل المقتضبة ذات النفس القصير، لكنها تستمد قوة تأثيرها من هذه الجمل القصيرة، وفيها صور تقريرية عبر المشاهد المختلفة لتلك الأسواق:

"فيها من تسير مُحجبة وفيها من ترتدي الجينز وفيها من ترتدي الثوب المريح الفضفاض" على عكس مقالة المسيري ذات النفس الهادئ والجملة المتفرعة لما بعدها للوصول إلى المعنى/ الغاية، عند المسيري، وهو في مقالته أشبه بمن يبني بناء شيئاً فشيئاً. فرؤى المسيري لهذه الظاهرة رؤى تعمقية أبعد مما قد يُرى لأول وهلة (وهو ما اقتصرت عليه أماني في مقالتها لنفس الموضوع).

ويهدف المسيري من كل هذا الوصول لرؤية مكتملة حكمية شاملة، يستطيع القارئ من خلالها مشاهدة كامل الصورة المعنية في المقالة، ومن ثم يستطيع أن يُحدد موطئ قدمه، وسلوكه بعد ذلك.

---

(١) مثل هالة سرحان وعبد الوهاب مطاوع .

(٢) النقود البلاستيكية مثل بطاقات الائتمان لها ما لها من الإيجابيات ومن السلبيات كذلك، فهي من جهة توفر الأمان والعملية لصاحبها بدلاً من حمل مبالغ ورقية كثيرة، إلا أنها مرتبطة بشدة بسهولة صرف المال عن طريقها من دون تفكير وتقدير كبيرين.

واشتملت كلتا المقالتين على ألفاظ أجنبية دخيلة

مثل:

سيلز

أوكازيون

مولات

كاوتشوك

جينز

من مقالة أماني

شوبنج

الإمبريالية

أوكزينوهات

من مقالة المسيري

شوكولاته

وقد أصبحت هذه الألفاظ من المصطلحات المتداولة والشائعة لدينا، وخضعت بعض الكلمات للتحوير في بنيتها، بقصد تقريبها للسان العربي بإضافة تاء التأنيث لها، وجمعها جمع مؤنث سالم.

فخضعت: (مولات و أوكازيونات) إلى تحوير في بنيتها لتقريبها للسان العربي، بإضافة تاء التأنيث لها، وجمعها جمع مؤنث سالم.

مع العلم أن(أوكازيون وسيلز) لهما نفس المعنى، وهو التخفيضات ولكن الأولى فرنسية، والثانية إنجليزية، ويكثر استخدام أوكازيون في المجتمع المصري، بينما المولات حديثة التداول والاستعمال في مجتمعاتنا العربية مقارنة بالأوكازيونات.

أما الأحذية الكوتشوك فهي الأحذية المطاطية البلاستيكية المرنة ذات السهولة في الاستعمال للرجال والنساء و الأطفال بوجه خاص.

أما كلمة جينز فتعني القماش الأزرق المعروف، وهو قماش أمريكي الابتكار بلونه الأزرق الشائع.

وهكذا نرى كيف أصبحت أحاديث العربية مطعمة بالمصطلحات الغربية المتعلقة بالجانب الاستهلاكي بصفة أساسية.

المبحث الثالث

السيرة والمقال الاجتماعي

تمثل المقالة الاجتماعية النسبة الأوفر حظاً من أدب السيرة المقالية. فالمجتمعات الغربية تختلف اختلافاً بيّناً عن المجتمعات العربية، والحضارة ليست مجرد بنايات شاهقة وأجهزة إلكترونية دقيقة، بقدر ماهي رُقّي في التعامل الإنساني بين أفراد المجتمع وضمان إعلاء شأن الفرد وتقديره.

وقد تميزت بعض السير عن غيرها من ناحية تناول الرؤية الاجتماعية تناولاً شمولياً من الجانبين، للجانب المضيء كما للجانب المظلم كذلك. ولا أظن أن هذه الشمولية تتأتى إلا لمن يمتلك خلفية حضارية مغايرة عما يراه ويعايشه في بيئته الجديدة، فعندما تطلب هالة سرحان تركيب جهاز هاتف في شقتها الصغيرة بالولايات المتحدة، ويتم الأمر في غضون ساعتين لا أكثر، تعود بها الذاكرة عفوياً لما يحدث في بلدها ولنفس الأمر، حيث الانتظار لشهور، مع مهاتفات ورسائل وكمٍ من "الواسطة" وأكثر، وبعد استنفاذ الوقت والجهد، ليتم تركيب الهاتف[١].

*****

(١) انظر: أمريكا خبط لزق، ٣٢.

ومن البدهيات الثقافية للمجتمع الغربي – الأمريكي على وجه خاص– شعار براق اسمه الحلم الأمريكي.

والحلم الأمريكي ببساطة هو أن ما يُظن باستحالة تحقيقه في بلد ما، يتحقق بالجهد والمثابرة لأي فرد في الولايات المتحدة، مهما كان وضعه في درجات السلم الاجتماعي. حتى لو أراد الوصول إلى سُدة الرئاسة لهذا البلد العملاق(١).

ويتقاطر ملايين المهاجرين من كل حدبٍ وصوب على الولايات المتحدة سنوياً، بغية تحقيق أحلامهم، لاسيما تلك المتعلقة بتحسين المستوى المعيشي، ويستطيع أي إنسان في أمريكا إن كان من أهلها أو من المهاجرين إليها، أن يبني نفسه من الصفر، حتى يصبح رأس الحربة في مجاله، دون أن يلجأ إلى الواسطة أو الرشوة ونحوها. إنها أمريكا أرض الأحلام. تقول هالة سرحان "الحلم الأمريكي The American dream من العبارات التاريخية المأثورة والأثيرة بالنسبة لكل مواطن أمريكي، فالمهاجر يأتي إلى أمريكا وفي جعبته الحلم الأمريكي، ما هو الحلم الأمريكي؟ هو الرفاهية والثروة والحرية والديمقراطية والنجاح والطموح والصعود، وهو كل قصة نجاح. فالحلم الأمريكي هو أن تأتي

(١) يُشترط لمن يريد الترشح لمنصب رئيس الولايات المتحدة أن يكون مولوداً على الأراضي الأمريكية.

من بلاد الفقر والقهر والجهل خالي الوفاض، وتكد وتتعب وتعمل وتصبح مليونيراً من عرق جبينك، وليس عن طريق الوراثة أو الثروة المفاجئة. الحلم الأمريكي هو أن تصبح "سيناتور" في الكونجرس أو رئيس الولايات المتحدة عن طريق الانتخابات الحرة، وليس عن طريق الواسطة أو الرشوة. الحلم الأمريكي نظرية فلسفية وسياسية واقتصادية واجتماعية"[1].

-الحلم الأمريكي إذن مشروع حياة بأكمله، وأفضل ما فيه بالنسبة للمهاجرين: أن من يذهب للولايات المتحدة للعمل فيها لابد له أن يجد عملاً شريفاً في نهاية المطاف، أياً كان هذا العمل. قد يكون بائعاً في حانوت لبيع التذكارات، أو عاملاً في أحد المصانع، أو طاهياً في مطعم شرقي - وفي أمريكا يعشقون المطاعم إلى درجة الهوس-.. هذا إذا كان المرء ذا إمكانيات تعليمية عادية أو أقل من عادية، أما إذا كان متعلماً، فالفرص الوظيفية تتسع أمامه، لاسيما إذا كان متفوقاً في مجال إبداعي.

فالمعروف أن المدرسة الإبداعية الأمريكية تقوم على شعار لمَ لا؟ Why not?. بمعنى تشجيع التجارب البحثية والتجريب والتجريب ثم

(١) أمريكا خبط لزق، ١٠٨ ، ١٠٩.

التجريب، حتى لو انفصلت التجربة عن الغاية الأخلاقية لما ستؤول إليه التجارب.

وتذكر الباحثة العالمة السعودية **حياة سندي**[1] أنها عندما قدمت أفكاراً إبداعية في مجال تخصصها، كانت تحتاج إلى تمويل إلى الجهات العلمية البريطانية، فقُوبلت ببعض التحفظات والتساؤلات والتدقيق، بعكس الحقل العلمي في الولايات المتحدة – الذي يجنح إلى التجريب– الذين رحبوا بفكرتها، فكان أن ارتحلت لأمريكا لمواصلة تحقيق طموحاتها العلمية.

---

(١) حياة سندي: حياة سليمان سندي (١٩٦٥–) من مواليد مكة المكرمة، درست علومها الأولية في مكة، وارتحلت إلى لندن لتتخصص في علم الأدوية، كانت تدرس بمعدل ١٨–٢٠ ساعة يومياً، لفتت أنظار المجتمع العلمي البريطاني بموهبتها ،وقد تبنت موهبتها العلمية الأميرة آن ابنة ملكة بريطانيا ،فأسست حياة مختبراً علمياً وفريق عمل لأبحاثها وتجاربها.

وواصلت تعليمها بدعم من الملك عبدالله بن عبد العزيز آل سعود، حتى حصلت على درجة الدكتوراه.

دعتها كل من وكالة ناسا لأبحاث الفضاء ومعامل ساندیا الأمريكية (المعامل الأكثر أهمية في العالم) ،ولكنها رفضت العمل لديهم خشية أن تستعمل خبرتها في أغراض حربية.

رفضت العمل والذهاب إلى المجامع الإسرائيلية.

انظر:

الموسوعة الحرة ويكبيديا.

- من حيث الصياغة الفنية للمقالة، فقد جاءت في جمل متتالية و عبارات التقريرية سريعة الإيقاع، ولم تتوغل فيها الكاتبة، وهو الأسلوب الذي اعتمدت عليه في هذا الكتاب (أمريكا خبط لزق)، أسلوب يميل للخفة والسلاسة في التناول، وهذا هو الأفضل برأيي، وإلا تحولت هذه السيرة الجزئية (الرحلة الدراسية لأمريكا) إلى موضوع ثقيل، بل إن المرء يستطيع أن يخرج بعد قراءة مقالات الكتاب بصورة شافية عن المجتمع الأمريكي وأساليبه في العيش والاستهلاك وطقوسه الثقافية، وعن المناسبات السعيدة والحزينة.. وهكذا.

واكتفت الكاتبة بالمعالجة السهلة لموضوع المقالة عن طريق التعقيب الشخصي، والمقالة مُركزة، أي أنها كافية لتوضيح الموضوع الأساسي لعبارة الحلم الأمريكي، فالإيجاز هنا لم يخلّ بسلامة المعنى.